الشرور والآلام(2)

<"xml encoding="UTF-8?>

المبحث الرابع: حكمة الشرور والآلام

1- تثبت البراهين القاطعة بأنّ اللّه تعالى حكيم ومنزّه عن الظلم والأفعال القبيحة، ولهذا يلزم حمل الشرور على ما لا ينافي هذه البراهين القاطعة .

2- عدم معرفة حكمة الشرور والآلام لا يعني عدم وجود حكمة فيها، بل غاية الأمر قصور الفهم وعدم العلم بحكمتها، وقد ورد في النصوص الدينية :

قال تعالى: { وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً } [الإسراء: 85]

قال تعالى: { يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا } [الروم: 7]

قال الإمام علي(عليه السلام): "إنّ الدنيا لم تكن لتستقر إلاّ على ما جعلها اللّه عليه من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد ، أو ما شاء مما لا تعلم ، فإن أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك"(1).

3- إنّ البلايا والمصائب خير وسيلة لتفجير الطاقات وازدهار المواهب وتنشيط المساعي والاندفاع نحو الحركة المثمرة والمحاولة المقتدرة والسعي المتواصل والتحرّر من الكسل .

بعبارة أُخرى :

يكمن كمال الإنسان في المسارعة نحو الكمال ، ولا يكون ذلك إلاّ في ظل الطموح ، ولا يتحقّق الطموح إلاّ في ظل الحرمان .

4- إنّ أجواء الحياة المحفوفة بالمشاكل والمصاعب تدفع الإنسان الذي يحسن الاستفادة منها إلى غرس الصمود والصلابة في نفسه ، وتزيده قوّة لحلّ المشاكل

_____

1-نهج البلاغة ، الشريف الرضي، رسالة 31، ص541 .

الصفحة 119

ورفع الموانع وتحطيم العقبات ومواجهة التيارات المعاكسة التي يجدها خلال مسيرته نحو الكمال .

قال الإمام علي(عليه السلام): "إنّ الشجرة البريّة(1) أصلب عوداً، والرواتع الخضرة(2) أرق جلوداً"(3) .

5- إنّ اللذائذ والشهوات ـ بصورة عامة ـ توجب غفلة الإنسان ، وتؤدّي إلى ابتعاده عن القيم الأخلاقية والكمالات المعنوية، وإنّ البلايا والمصائب والمحن تكون بمنزلة المنبّهات التي توقظ الإنسان وتخفّف من غفلته وطغيانه ، ولهذا قال تعالى:

{وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَة مِنْ نَبِيّ إِلاّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } [الأعراف: 94]

{ وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْص مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }[الأعراف: 130]

{ وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاء عَرِيض } [فصّلت: 51]

{ وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَر ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ }[الشورى: 27]

{ وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ }[المؤمنون: 75]

6- إنّ البلايا والمصائب خير وسيلة لإيقاف الإنسان العاصي على نتائج عتوّه وعصيانه ، وهي أدعى لأهل السوء إلى ترك العناد، وأشدّ زجراً لنفوسهم عن الميل إلى الهوى وحبّ الفساد، وهي تتضمّن التحذير لهم ، وتحثّهم على إصلاح نفوسهم .

_____

1- الشجرية البرّية: التي تنبت في البرّ الذي لا ماء فيه .

2- الرواتع الخضرة: الأشجار والأعشاب الغضة الناعمة التي تنبت في الأرض الندية .

3- نهج البلاغة ، الشريف الرضي: رسالة 45 (كتاب له(عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري) ، ص575 .

الصفحة 120

قال تعالى: { ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: 41]

قال الإمام الصادق(عليه السلام): "إنّ اللّه إذا أراد(1) بعبد خيراً فأذنب ذنباً، أتبعه بنقمة، ويذكّره الاستغفار"(2) .

7- إنّ كون البلاء نعمة أو نقمة يرتبط بنوع ردّ فعل الإنسان ، لأنّ الموضوع الواحد قد يختلف وصفه بالنسبة إلى شخصين .

توضيح :

إنّ البلايا والمصائب وسيلة لاختبار الإنسان .

فإذا كان موقف الإنسان منها موقف المؤمن الصالح، فسيكون البلاء له خيراً، وسبيلا لوصوله إلى الكمال .

وإن كان موقف الإنسان منها موقف المعاند للحق ، فسيكون البلاء له شراً، وسبيلا لإيصاله إلى النقصان .

مثال :

إنّ الفقر بصورة عامة شرّ ، ولكنه إذا كان سبباً في تقرّب الإنسان إلى اللّه تعالى فهو خير .

وإنّ الغنى بصورة عامة خير، ولكنه إذا كان سبباً في ابتعاد الإنسان عن اللّه تعالى فهو شر(3).

وقد قال تعالى: { وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا(4) إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ } [آل عمران: 178]

_____

1- إنّ إرادة اللّه تعالى ليست عشوائية، وإنّ منشأها في هذا المقام عمل الإنسان نفسه .

2- الكافي ، الكليني: ج2 ، كتاب الإيمان والكفر، باب الاستدراج ، ح1، ص452 .

3- انظر: أُصول العقائد في الإسلام ، مجتبى الموسوي اللاري: ج1، الأصل الثاني، بحث: تحليل حول الشرور في العالم، ص 181 ـ 182 .

4- إنّ اللام في (لِيَزْدادُوا) ليست للغرض ، لأ نّه تعالى عدل حكيم، ولا يكون الإثم غرضاً لفعله تعالى ، بل اللام هي لام العاقبة والنتيجة، أي: إنّ الإنسان مختار في أفعاله، فإذا اختار الشر، فستكون نتيجته الوقوع في المزيد من الإثم .

النتيجة :

يُنزّل اللّه تعالى ـ بحكمته ـ وحسب ما تقتضيه المصلحة النعمة والبلاء على الناس .

فمن شكر إزاء النعم وصبر إزاء البلاء فهو من أهل السعادة.

ومن كفر إزاء النعم ولم يصبر إزاء البلاء فهو من أهل الشقاء .

8- إنّ الحكمة من بعض البلايا هو اختبار العباد وتشخيص مستوى استعانتهم بالصبر ، وقد ورد في النصوص الدينية :

قال تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْء مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْص مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصّابِرِينَ } [البقرة: 155]

قال الإمام الصادق(عليه السلام): "إنّ العبد ليكون له عند اللّه الدرجة لا يبلغها بعمله ، فيبتليه اللّه في جسده ، أو يصاب بماله ، أو يصاب في ولده ، فإن هو صبر بلّغه اللّه إيّاها"(1).

9- إنّ بعض الشرور قد تكون لمعاقبة العصاة والمذنبين ، وهي مصائب بما كسبت أيدي الناس ، وقد ورد هذا المعنى في العديد من الآيات القرآنية، منها :

{ أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْن مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [الأنعام: 6]

{ وَما كُنّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ } [القصص: 59]

{ وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَة فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى: 30]

{ فَكُلاًّ (من الأمم التي أنزلنا عليها العذاب) أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ... وَما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت: 40]

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكات مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ

_____

1- بحار الأنوار ، العلاّمة المجلسي: ج71، كتاب الإيمان والكفر ، باب 62، ح50، ص94 .

وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: 96]

تنبيه :

إنّ العذاب الذي أباد اللّه تعالى به بعض الأُمم السابقة بما كسبت أيديهم أهلك الظالمين لظلمهم، وأهلك غيرهم لعدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

ولهذا ورد في القرآن والسنة :

قال تعالى: { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً } [الأنفال:25]

قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله): "لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليعمّنكم عذاب اللّه"(1) .

10- إنّ اللّه سبحانه وتعالى يبتلي بعض عباده بالمصائب ليطهّرهم من الأدران والشوائب التي علقت بهم خلال ارتكابهم للذنوب، فيكون ذلك سبيلا لتكفير خطاياهم .

قال رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم): "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا أذى ولا حزن ولا همّ .. إلاّ كفّر اللّه به خطاياه"(2).

11- إنّ الحكمة من نزول البلايا والمصائب على الأنبياء والأولياء والمخلصين هو تركهم الأولى أو رفع شأنهم ، وقد ورد في الأحاديث الشريفة:

قال الإمام علي(عليه السلام): "إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة"(3).

قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق(عليه السلام): "إنّ اللّه يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب"(4).

_____

1- وسائل الشيعة، الحرّ العاملي: ج16 ، كتاب الأمر بالمعروف و ...، باب 3، ح[21173]12 ، ص135 .

2- بحار الأنوار ، العلاّمة المجلسي: ج81 ، كتاب الطهارة ، باب 44، ح45، ص188 .

3- المصدر السابق: ج67، كتاب الإيمان والكفر، باب 12 ، ح54، ص235 .

4- الكافي ، الشيخ الكليني: ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب في تفسير الذنوب، باب نادر، ح2، ص450 .

تنبيهان :

1- إنّ بعض مصاديق الخير والشر واضحة عند الإنسان ، والبعض الآخر مبهمة بحيث لا يستطيع الإنسان التمييز

بين كونها خيراً أو شراً له ، من قبيل الأُمور المرتبطة بعالم الغيب، وهنا ينبغي للإنسان الرجوع إلى الدين والشريعة الحقّة ليعرف ما هو خير له وما هو شر له .

2- إنّ الإنسان قد ينطلق في تقييمه للشرور والبلاء من رؤية غير شمولية، فيجعل المصالح الآنية مقياساً للتقييم ، وهو غافل عن مصلحته الكلية .

ولهذا قال تعالى: { وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 216]

المبحث الخامس: إيلام غير المكلَّفين

إنّ أسباب الآلام التي تصيب غير المكلّفين (من قبيل الأطفال وذوي العقول القاصرة والبهائم و ...) تنقسم إلى قسمين :

الأوّل: يكون المسبّب للألم غير اللّه، من قبيل الذوات العاقلة التي تمتلك الاختيار في الفعل ، فتكون هذه الذوات هي المتحمّلة لتبعات إلحاقها الألم بغيرها (فيما لو كان في ذلك تجاوزٌ لحدود العدل) .

الثانية: يعود سبب الألم إلى اللّه تعالى ، وبما أ نّه تعالى عادل وحكيم ، فهو لا يفعل إلاّ ما فيه العدل والحكمة(1) .

أضف إلى ذلك :

1- قد يكون الغرض والحكمة من إلحاق اللّه الألم بغير المكلّفين هو اعتبار واتّعاظ المكلّفين ، وبهذا يخرج هذا الألم عن كونه عبثاً .

2- سيعوّض اللّه تعالى هؤلاء غير المكلّفين في يوم القيامة إزاء هذه الآلام ، وبهذا يخرج الألم عن كونه ظلماً(2) .
تنبيه :

ليس في موت الأطفال بصورة مبكّرة ماينافي العدل الإلهي، لأنّ الإبقاء ليس واجباً عليه تعالى ليكون في تركه خلاف العدل ، كما أنّ هؤلاء الأطفال سيجتازون

_____

1- إنّ اللّه تعالى حكيم، وهو منزّه عن الظلم والأفعال القبيحة، وكما أشرنا فيما سبق فإنّ عدم الإلمام بحكمة إيلامه تعالى للأطفال والبهائم لا يعني عدم وجود حكمة في هذا المجال ، بل يعني ذلك عدم علمنا بها .

2- للمزيد راجع في هذا الكتاب: الفصل الخامس: العوض .

الصفحة 125

مرحلة التكليف يوم القيامة، وسيتم تحديد مصيرهم هناك من خلال اختيارهم لسبيل السعادة أو الشقاء(1).
وجه حسن إيلامه تعالى للبهائم :

إنّ اللّه تعالى أباح للإنسان ذبح البهائم من أجل الانتفاع بها .

ويكون الغرض الذي يخرج به هذا الإيلام من العبث: انتفاع الإنسان من لحومها وجلودها و ... ويكون الأمر الذي يخرج به هذا الإيلام من الظلم: أ نّه تعالى تكفّل أعطاء العوض لهذه البهائم في يوم القيامة(2).

_____

1- للمزيد راجع في هذا الكتاب: الفصل الثامن: التكليف ، المبحث السابع .

2- انظر: هداية الأمة إلى معارف الأئمة ، محمّد جواد الخراساني: ص783 .